

# تفاعلات الأزمة السورية تجبر القيسيات على مغادرة المنطقة الرمادية

## تقاطع مصالح المال والسلطة يقود الحركة الدينية النسوية إلى المحذور



شكلت حركة القيسيات حالة فريدة من نوعها في الوطن العربي، حيث نجحت هذه الحركة الدينية النسوية في فرض نفسها في حقل لطالما هيمن عليه الرجال، متجاوزة العديد من المراحل التي لم تخل من صعوبات متبينة في ذلك نهجا لا يخلو من براجماتية في علاقتها بالسلطة والجماعات الدينية المختلفة في سوريا. ولئن تعرضت هذه الحركة إلى العديد من الهزات على خلفية الأزمة السورية منذ العام 2011، فإنها لا تزال مركز جذب بالنسبة إلى الكثيرات.

صابرة دوح  
كاتبة تونسية



نجحت حركة القيسيات في الحفاظ على وجودها لاسيما داخل الحواضر الكبرى في سوريا، رغم ظروف الحرب التي تمر بها البلاد منذ العام 2012، والتي أثرت على العديد من التنظيمات والمجموعات الدينية ذات الخلفية الفكرية "المعتدلة"، في مقابل صعود التيارات الراديكالية.

ولعب تكوين هذه الحركة الدينية النسوية التي جمعت بين الحفاظ على رؤية دينية تقليدية، بالتوازي مع اعتمادها منهجا حديثا وهو ما يظهر في هيكليتها التنظيمية غير المعقدة، دورا أساسيا ليس فقط في الإبقاء على هذا الوجود على مدى عقود بل وفي اتساع نطاق انتشارها، ولا تزال هذه الحركة أو الجماعة إلى اليوم تشكل مركز جذب للكثير من النساء يتجاوز الجغرافيا السورية.

واجهت الحركة في العام 2011 بعض الانتقادات جراء موقفها ككل من الثورة في سوريا، والذي شكل بمثابة نقطة تحول كبير بالنسبة إليها خصوصا وأنها أبدت في السابق حرصا على الحفاظ على نوع من الحياد راضية التوغل في الحقل السياسي، أو إبداء أي موقف بشأنه، وهو ما ساهم على مدى عقود في تغلغلها وانتشارها أفقيا داخل المجتمع السوري، بيد أن هذه الانتقادات لم تؤثر على النحو الذي يعتقد منتقدوها.



منير الفقير  
النظام استخدم  
القيسيات كوسيلة  
لشرعنة حكمه

وكان نظام الرئيس بشار الأسد حرص على استقطاب هذه الحركة الدينية الخبوية إلى صفه بعد أن كانت المواقف الرسمية لتجاهها متباينة ومغلقة بالكثير من الشكوك وانعدام الثقة. وشكل اللقاء الشهير في القصر الجمهوري في العام 2011 بين عضوات الحركة والرئيس الأسد بمثابة إعلان عن انحياز هذه الحركة للنظام في وجه الثورة، وإن كان البعض يرى أن هذا الحضور لا يمكن البناء عليه للحديث عن اصطاف واضح وصريح، خصوصا وأنه غابت عنه مؤسسة الحركة منيرة القبيسي (86 عاما) وأيضا أميرة جبريل.

ويرى المدافعون عن الحركة أن موقفها كان اضطراريا للحفاظ على وجودها واستمراريتها، لأن استعدادها للنظام في تلك الفترة قد يقود إلى سحقها خصوصا وأن موطن ثقلها كان دمشق حيث مركز نفوذ الرئيس الأسد، منوهين إلى أنه لم يسجل أي تصريح علني من عضوات الحركة يتصنر فيه لهذا الطرف أو ذاك.

في المقابل يجد هذا الموقف انتقادا من المؤيدين للثورة وقوى المعارضة، الذين يرون في أن بنية القيسيات نفسها القائمة على الطبقة الثرية تجعل مصالح الحركة تتقاطع بالضرورة وحسابات السلطة، ويستشهد هؤلاء بتعيين إحدى عضوات الحركة سلمى عياش كمعاون لوزير الأوقاف، والذي كان الهدف منه ضمان ولاء الحركة ومكافئتها على جهود دعمها.

### الأنسة الكبرى

يقول منير الفقير الباحث في مركز عمران للدراسات الاستراتيجية لـ "العرب" إن بدايات حركة القيسيات كانت على يد مؤسسها الحاجة منيرة القبيسي (من مواليد دمشق عام 1933)، وقد درست القبيسي (تلقب أيضا بالشيخة أو الأنسة الكبرى) في كلية



لقاء يدشن لتحول مفصلي

العلوم بجامعة دمشق وانتمت لجماعة الشيخ أحمد كفتارو مفتي الجمهورية السورية الأسبق، ومنذ نهايات ستينات القرن الماضي، انطلقت الحاجة القبيسي كداعية شابة ضمن صفوف هذه الجماعة الصوفية النقشبندية.

### حركة تتحدى هيمنة الرجل

يرى الفقير أنه لا يمكن سبر أغوار القبيسي الفكرية لاسيما في بداياتها، دون البحث في شخصية ملهمها والأب الروحي الشيخ كفتارو الذي عرفت عنه مواقف المثيرة للجدل في ما يتعلق بالعلاقة مع السلطة وبالأخص حزب البعث الحاكم، وعلاقته بالجماعات الإسلامية الأخرى ومن بينها جماعة الإخوان المسلمين وعموم المشيخة الشامية التقليدية.

واتسم موقف كفتارو بالقرب من السلطة السياسية بالمجمل، وفي مراحل مبكرة سجل لديه نزوع نحو خصوم التيار الديني العلمي والحركي، كما ظهر ذلك في دعم كفتارو لترشيح المحامي البعثي رياض المالكي عام 1957 ثم القرب من الحكومات الانقلابية البعثية وصولا لتولي كفتارو منصب مفتي سوريا.

وسط نجم القبيسي ضمن جماعة كفتارو وتحت اسم شيخ الجماعة الذي ركز منهج دعوته على التصوف والزكية وفق الطريقة النقشبندية وابتعد إلى حد كبير عن المنهج العلمي للمدرسة الشامية التقليدية، وبدات القبيسي ومن معها بشق طريقها في حقل العلم الشرعي بالتوازي مع توسع نطاق حركتها وتوطد علاقاتها مع الوسط الديني وأيضا مع البرجوازية المدنية بشكل أساسي في حلب ودمشق ليبدأ في منتصف السبعينات ابتعاد القبيسي ومن معها عن كفتارو لتنتهج نهجا يدمج بين الوعظية الدعوية والتربية الصوفية النقشبندية والنهج العلمي التقليدي للمدرسة الشامية وفق المذهب الشافعي. وواكب ذلك بدايات الصدام العنيف بين نظام الرئيس الراحل حافظ الأسد وجماعة الإخوان المسلمين نهاية السبعينات والذي انتهى بسحق جماعة الإخوان بما في ذلك الامتدادات النسوية

داخلها، لتغدو جماعة كفتارو ومن في حكمها منهجا وموقفا، الحليف السني الرئيسي للنظام الذي يشترع بقاءه المستند أيضا إلى عصبية علوية عميقة. دعم نظام حافظ الأسد جماعة كفتارو كما غض الطرف عن تمدد حركة القيسيات التي حققت انتشارا أفقيا واسعاً داخل المجتمعات الحضرية، لما أظهرته من التزام بالجانب الدعوي والخيري، وابتعادا كلياً عن الشأن السياسي، وهو الأمر المطلوب بالنسبة إلى السلطة.

ولم تخل توجهات السلطة في التعااطي مع جماعة كفتارو كما مع القيسيات من خلفيات سياسية، حيث تم توظيف الطرفين لتحديد جماعة الإخوان المسلمين ونشر الفكر المحافظ والصوفي.

ويوضح الفقير أن نشاط القيسيات شهد نقلة نوعية في ثمانينات القرن الماضي، وقد اتسع نطاق انتشارها لتتجاوز دمشق إلى عموم المحافظات السورية وتعتبر إلى الأردن ولبنان وحتى دول أوروبية، واستطاعت الحركة أن تسد ثغرة كبيرة في الفراغ الديني الذي خلفه سحق نظام حافظ الأسد للحركة الإسلامية مع موقف مهان لكن غير متمسك مع النظام وابتعد عن التحدث أو التدخل في أي شأن سياسي.

### الوقوع في المحذور

مع وصول الأسد الابن (بشار) إلى السلطة مطلع العام 2000 توطدت العلاقة بين حركة القيسيات ومسؤولين في النظام من الدرجة الأولى وصولا إلى البناء على علاقة قديمة مع والدة أسماء الأسد (زوجة بشار الأسد). وكان لتحولات نظام الأسد الاقتصادية بعد استلام بشار السلطة وتحالفاته الجديدة مع البرجوازية الدمشقية والحلبيية دور كبير في توطيد علاقات القيسيات مع السلطة الحاكمة حيث تنتمي الكثير من زوجات تجار ورجال الأعمال في دمشق وحلب وحمص إلى الحركة وبعضهن من قيادات الصف الأول فيها، في الوقت الذي بدا أن النظام أراد أن يضبط السوري الذي بقي تحت سلطته.

### من المهاندنة إلى التماهي

#### منيرة القبيسي

- ولدت في العاصمة السورية دمشق عام 1933، وانضمت مبكرا إلى الحقل الديني متأثرة بمفتي سوريا الأسبق الشيخ أحمد كفتارو.
- عملت ضمن جماعة كفتارو لسنوات، قبل أن تتخذ خطا مغايرا بتأسيس حركة نسوية دينية أطلقت عليها تسمية «القيسيات».
- نجحت الحركة في استثمار الظروف المحيطة بسوريا في ثمانينات القرن الماضي لاسيما الصدام بين السلطة وجماعة الإخوان، لتتحقق انتشارا أفقيا واسعا داخل الحواضر الكبرى.
- حرصت القبيسي على النأي بحركتها عن كل ماهو سياسي، بالاهتمام بالجانب الدعوي والخيري والاجتماعي من خلال التركيز على قطاعات بعينها كالتعليم (في تجربة شبينة بالداعية التركية عبدالله غول).
- شكل صعود بشار الأسد في العام 2000 نقطة تحول حيث تم السماح للحركة بالعمل بشكل علني، مع الإبقاء عليها تحت مجهر المخابرات السورية.
- عمد النظام السوري مع انفجار الأحداث في العام 2011 إلى استقطاب الحركة إلى صفه لإدراكه بأهمية تأثيرها داخل المجتمعات الحضرية، فكان اللقاء الشهير الذي جمع بين الأسد وعضوات الحركة في القصر الجمهوري في ذلك العام، وتلاه بسنوات منح سلمى عياش إحدى العضوات منصب معاون وزير الأوقاف.
- في خضم هذا التحول للحركة لم يسجل أي ظهور لمؤسسها منيرة القبيسي، البعض يعيد ذلك إلى سن المرأة (86 عاما) وأخرون يرون في الأمر علاقة بتمسكها بمنهجها في البقاء على الحياد وعدم الانخراط في السياسة.